حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر*

واحد من شباب صحابة رسول الله ﷺ، حيث توفي صفوة الخلق صلوات الله وسلامه عليه وهو في الثامنة عشرة من عمره «١٨ عاماً»، ويكفيه مكانة أنه ولد ونشأ في بيت النبوة، وفتح عينيه بعدما بدأ يعي أمور الدنيا على تباشير الدعوة المحمدية. التي جاءت من عند الله، يترجّع صداها من جبال مكة ووهادها وليدرك من حركات القوم في مكة أخبار السابقين لدين الإسلام، وما يلاقونه من جبابرة قريش من مشقة وجهود وأعمال، يراد منها إطفاء هذا النور، الذي أرسله الله ليضيء القلوب، قبل انبلاجه على البطاح والقفار. ولتتروّى منه النفوس الظامئة. التي أراد الله لها الخير، أمكن من حرصهم على تتبع خضرة ما تحتاجه أنعامهم من كلأ تتفتّح عنه الأرض، بعدما يصيبها الوابل في فصل الشتاء.

بل يكفيه فخراً أن رسول الهداية ﷺ أوصى به خيراً، وأعتبره من أحب الناس إليه، وأكرم بها منزلة. فقد روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ، أو من أحب الناس إليّ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم، فاستوصوا به خيراً»(١).

وقد أدرك مكانة هذا الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في

---

* وردت ترجمة للباحث في العدد التاسع ص ٢٨٩ من مجلة البحوث الإسلامية.

(١) أسد الغابة لابن الأثير: ٧٩:١

مواقف عديدة، استئناساً بمكانته من رسول الله ﷺ، حيث كان صحابة رسول الله ﷺ، يدركون أن من لوازم حسن الاتباع في دين الإسلام، محبة ما أحبه رسول الله ﷺ والحرص عليه، وبغض ما أبغضه رسول الله ﷺ. والبعد عنه، اهتماماً بالصحبة، وتقرباً إلى الله بمثل ذلك العمل، كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه وأبو هريرة رضي الله عنه، في حديثين روياهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين» أخرجه البخاري ومسلم، والنسائي[1].

وإدراك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء من تلك النظرة الشمولية التي تربّت عليها نفوس صحابة رسول الله المتروية من منبع الرسالة الصافي، فاهتموا بكل أمر يهتم به رسول الله ﷺ، وقاسوا الأمور على ذلك المحك الإيماني الرفيع، حرصاً واهتماماً، واتباعاً وحسن توجيه..

فنراه رضي الله عنه، ينقاد وبطواعيه وراحة نفس إلى الانضمام للجيش الذي عقد رسول الله ﷺ لواءه وأمّر عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه، مع حداثة سنه، ولم يتأفف ابن الخطاب رضي الله عنه، مع جلالة قدره ومع تقدم سنه ومكانته في الإسلام، قوة وسبقاً. أعزّ الله الإسلام به، بل ولم يدر بخلده ولا جال في خواطر كثير من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يتمردوا على قائدهم الجديد، لأنهم انتقدوا بعض الناس الذين طعنوا في هذه الإمارة، والتي ما هي إلا طعن في أمر صدر عن رسول الله ﷺ، فقد ذكره الكاندهلوي أن القالة لما كثرت في ذلك، فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ذلك القول فرده على من تكلم به، وجاء إلى رسول الله ﷺ، وكان قد اشتكى فأخبره بقول من قال، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وقد عصب على رأسه بعصابة، وعليه قطيفة، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟. فوالله لئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله، إن

(١) رواية أنس، أما رواية أبي هريرة ففيها زيادة في بداية الحديث والذي نفسي بيده، ورواها البخاري والنسائي.

كان للإمارة لخليق، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وإن كان لأحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ، وإنهما لمخيّلان لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم(١).

ولذا نرى عمر رضي الله عنه قد اهتم بالانضواء تحت إمرة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، كما انقاد مثله كثير من كبار المهاجرين والأنصار، حيث لم يبق من المهاجرين أحد إلا انتدب في تلك الغزوة، ومن هؤلاء: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد من المهاجرين، وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم من الأنصار وغيرهم.

لكن أبا بكر رضي الله عنه، لما بويع سأل أسامة أن يبقى عنده في المدينة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن يعفيه من الذهاب في هذا البعث، لحاجته إليه في الاستشارة والإعانة ففعل أسامة تقديراً منه لأبي بكر، وإعانة له في المهمة الكبيرة المناطة به(٢).

ولما تقلّد عمر رضي الله عنه أمرة المؤمنين بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبدأ تدوين العطاءات للمهاجرين والأنصار. نراه يفرض لأسامة بن زيد رضي الله عنهما ثلاثة آلاف وخمسمائة، ويفرض لأبنه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ثلاثة آلف فقط، ولما قال عبدالله لأبيه: لم فضلّت أسامة عليّ، فوالله ما سبقني إلى مشهد. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جواب محكم، اسكت عبدالله، وأعطاه درساً سار عليه بقية حياته: لأن زيداً كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك. وكان أسامة أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فاثرت حب رسول الله ﷺ على حبي» أخرجه الترمذي وقال حسن غريب(٣).

---

(١) حياة الصحابة ١: ٤٠٧، نقلاً عن ابن عساكر في التهذيب ١: ١٢٠.. في قصة اهتمامه ﷺ ببعث أسامة إلى الشام في مرض وفاته.

(٢) من حديث رواه الترمذي في مناقب أسامة برقم ٣٨١٩، وانظر طبقات ابن سعد ٤: ٦٧.

(٣) باب مناقب زيد بن حارثه برقم ٣٨١١٣، ورواية ابن سعد في الطبقات ٤: ٧٠ أنه جعل أسامة كابنه زيد أربعة آلاف وأبنه عبدالله ثلاثة آلاف وخمسمائة.

ولذا لما نظر عبدالله بن عمر يوماً وهو في المسجد إلى رجل يسحب ثيابه في ناحية من المسجد، قال: انظروا من هذا؟ فقال له إنسان: أما تعرف هذا يا أبا عبدالرحمن؟ هذا محمد بن أسامة بن زيد. قال: عبدالله بن دينار رحمه الله - وهو راوي الخبر -: فطأطأ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما رأسه ثم قال: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه (أخرجه البخاري)[1].

ولذا نرى كثيراً من كتب الحديث، والسير تهتم بأخباره رضي الله عنه، ومناقبه كما اهتمت بأخبار ومناقب أبيه زيد بن حارثة رضي الله عنه، الذي أنزل حكماً شرعياً، اقترن باسمه وزواجه من زينت بنت جحش الأسدية رضي الله عنها[2]، نسخ بموجبه ما كان سائداً عند العرب من اعتبار الولد بالتبني، أو بالحاق النسب، قائماً مقام النسب الحقيقي، حيث قطع الله هذه النسبة، وجاء هذا الحكم لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء.

مولده ونشأته:

لم تذكر كثير من الكتب تحديداً ثابتاً لولادة أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل، لكن ابن سعد ذكر في طبقاته أنه كان يكنى بأبي محمد، وأمه أم أيمن واسمها بركة حاضنه رسول الله ﷺ ومولاته، وكان زيد بن حارثة - في رواية بعض أهل العلم - أول الناس إسلاماً، ولم يفارق رسول الله ﷺ فزّوجه بأم أيمن، وولدت له أسامة بمكة، ونشأ حتى أدرك، ولم يعرف إلا الإسلام لله تعالى، ولم يدر بغيره، وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً، وكان عنده كبعض أهله[3].

أما ابن الاثير فقد ذكر أن رسول الله ﷺ: استعمله أميراً على بعث الشام وكان عمره ثمان عشرة سنة[4] وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن ولادته

---

(١) ٧: ٧٠: باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنهما، . . في فضائل الصحابة.

(٢) انظر تفسير سورة الأحزاب الآية ٣٧ عند ابن كثير رحمه الله ٣: ٤٩٠ - ٤٩٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٤: ٦١.

(٤) أسد الغابة ١: ٨٠.

كانت في العام الرابع من بعثة الرسول ﷺ[1] بمكة ولما كان رسـول الله ﷺ قد جهز هذا البعث الذي اسند إمرته إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما في المـرض الـذي توفي فيـه عليـه الصـلاة والسـلام، وكـان هـذا في السنـة العـاشرة من الهجرة، فإنه يترجح لدينا أن ولادته رضي الله عنه كانت في السنـة الثامنـة قبل الهجـرة، وليست في السنة السـابعة كـما ذكر الـزركلي عنـد مروره بـاسمـه في تراجمه[2]، إذْ يلزم من ذلك أن يكون عمره رضي الله عنه، عندما اسندت إليه هذه الإمارة في آخر شهر صفر من عام ١٠ هـ بعـد حجة الـوداع كما ذكـر ابن هشام في سيرته[3] سبعة عشر عاماً ولا تكون أيضاً في الرابع من البعثة كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية المشار إليه آنفاً فكانت نشأته في مكـة، حيث عاش في بيت النبوة، ثمان سنوات، ترعاه أمومـة حانيـة هي الحضن الذي حنـا على رسول الله ﷺ، وهو في مثل سن أسامة، فكان هذا موطن اعتزاز وشرف، ثم لما وعت أحاسيسه لما يـدور من حولـه، تأدب بـأخلاق النبـوة توجيهـاً وعنايـة وحنواً وعطفاً، فكان يلقى من رسـول الله أكثر ممـا يجد من أبيـه الذي هـو من صلبه حباً وشفقة، ثم هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينـة، بمصاحبـة والديـه الملازمين لرسول الله ﷺ فتفتحت مـواهبه عـلى توجيهـات ورعايـة رسول الله ﷺ، فكان يأخذ من كل موقف درساً، ومن كل حادثة تمرّ عليـه عبرة وعـظة، فمن ذلك:

١ ـ أنه عسكر بجيشه الذي أنفذه رسول الله ﷺ بالجرف ـ وهو موضـع قرب المدينة على ثلاثة أميال منهـا، به كـانت أموال عمـر رضي الله عنه، وهـو الموضع الذي استعرض فيه أبو بكـر رضي الله عنه القبـائل، حتى مَـرَّبَني فـزاره[4] حتى تتامّ النـاس إليه فخـرجوا، وثقــل رسـول الله ﷺ فـأقـام والناس معه، لينظروا ما الله قـاضٍ في رسولـه.. فلما توفي رسـول الله،

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٢٢٩.
(٢) الاعلام ١: ٢٨١.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٢٥٣.
(٤) تاج العروس ٦: ٥٦.

واستخلف أبو بكر رضي الله عنه جاء إليه يستأذنه فأذن له وقال: والله لا أحلّ راية عقدها رسول الله ﷺ.

٢ ـ لم يشهد مع علي رضي الله عنه من حروبه شيئاً، وقال له: لو أدخلت يدك في فم تنّين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعت رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله، وحكاية ذلك كما ذكر ابن الآثير بسنده: أن أسامة قال: أدركته، يعني كافراً كان قتل في المسلمين في غزاة لهم، قال: أدركته أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السلاح، قال: اشهد أن لا إله إلا الله، فلم نبرح عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله أخبرناه خبره، فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ فقلت: يا رسول الله، إنما قالها تعّوذاً من القتل، فقال: من لك يا أسامة بلا إله إلا الله؟. فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها عليّ حتى وددت أن ما مضى من اسلامي لم يكن، وأني اسلمت يومئذٍ. فقلت: أعطي الله عهداً. أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله»[1]. . فكان هذا تبريراً أوضحه لعلي رضي الله عنه لكي لا يكون معه ولا ضده، حيث روي أنه ممن اعتزل ما حصل بين الصحابة بعد فتنة عثمان رضي الله عنه. ولذا قال لعلي رضي الله عنه في موقف آخر، ضمن رسالة شفوية بعث بها مولاه حرملة. فقال له: اقرئه السلام وقل له: إنك لو كنت في شدق الأسد لأحببت أن أدخل معك، فيه، ولكن هذا أمر لم أره[2].

٣ ـ ولما أهم قريشاً أمر المرأة المخزومية التي سرقت. فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟.

فقالوا: ومن يجتريء عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله؟ فكلّمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: لم تشفع في حدّ من حدود الله؟

ثم قام النبي ﷺ، كما ذكر ابن سعد بسنده من حديث عائشة رضي الله

(١) أسد الغابة ١ : ٨٠.
(٢) طبقات ابن سعد ٤ : ٧١.

عنها، فاختطب فقال: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها(١). فكان هذا درساً تأدب به أسامة رضي الله عنه، بعدم الشفاعة في حد من حدود الله، ولم يرو عنه شيء من ذلك بعد ذلك، بل توقّف عن الشفاعة، وكان ابن سعد قد ذكر أن أسامة كان يأتي رسول الله ﷺ في الشيء فيشفّعه فيه، فأتاه مرة في حدّ، فقال: يا أسامة لا تشفع في حدّ من حدود الله(٢).

فما كان رضي الله عنه لينهى عن شيء ويأتيه، وهو الذي يدرك جيداً دلالة قول الله جل وعلا: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(٣) كما أنه قد ذكر عائشة بالخير عندما خاض الناس في حديث الإفك(٤).

٤ ـ كان باراً بوالدته رضي الله عنهما: أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ، ويحرص على اجابة كل مطلب ترغبه منه. وفي عهد عثمان رضي الله عنه، بلغت النخلة الف درهم، قال محمد بن سيرين، فعمد أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى نخلة فنقرها، وأخرج جمّارها فأطعمها أمه فقالوا له: ما يحملك على ذلك، وأنت ترى النخلة قد بلغت الف درهم؟ قال: إن أمي سألتنيه ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها..(٥).

وهذه مكانة رفيعه في حسن الأدب مع الوالدين، والحرص على برهما امتثالاً لأمر الله جلّ وعلا، وأمر رسوله ﷺ في الحرص على الوفاء للوالدين بحقهما، والاهتمام ببرهما، وأداء ما يجب نحوهما، لأن رضاهما من رضا الله وطاعتها بالمعروف من طاعة الله.

---

(١) نفس المصدر ٤: ٧٠.
(٢) الطبقات ٤: ٦٩.
(٣) سورةالحشر، آية ٧.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٢٢٩.
(٥) طبقات ابن سعد ٤: ٧١.

٥ ـ كان يترسّم هدى رسول الله ﷺ في العبادات، ويتأسّى بـه في القربـات، ويهتم بتطبيق توجيهـاته في اعـتزال الفتن إذا برز رأسهـا، مخافـة الوقـوع فيها، ولذا نراه رضي الله عنه في آخر أيامه يتنقّل ما بين وادي القـرى لأن له به مالاً، وبين الجرف، حيث استوطن إلى أن قبضه الله إليه.

فقد روى أحد مواليه أنه كان يركب إلى مال له بوادي القرى فيصوم يـوم الاثنين، ويوم الخميس، فقال له: أتصوم في السفر وقـد كبرت ورفُعْتَ[1]؟. قـال: رأيت رسول الله ﷺ يصـوم يـوم الاثنـين، ويـوم الخميس، وقـال: إن الأعـمال تعرض يـوم الاثنين ويـوم الخميس. فكـان يسمـع ليـطبّق، ويعـرف ليتـأسّى، حيث ورد في صحيح البخـاري وصحيح مسلم رحمهـما الله له ١٢٨ حديثاً[2].

كان رده في كثير من المواقف يتصف بالأدب الرفيع الذي تلقاه من مدرسة النبوة، ويحرص على التواضع في أعماله. فقد روي عن عبيدالله بن عبدالله أنه قال: «رأيت أسامة بن زيد يصلي في مكان بارز بمسجد رسول الله ﷺ، فدعي مروان إلى جنازة ليصلي عليها، فصلى عليها ثم رجع، وأسامة يصلي عنـد باب بيت النبي ﷺ، فقال له مـروان: إنما أردت أن يـرى مكانـك، فعل الله بـك وفعل، وقال قولاً قبيحاً، ثم أدبـر، فانصرف أسـامة وقـال: يا مـروان، إنك آذيتني، وإنـك فاحش متفحش، وإني سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش»[3].

وما ذلك إلا أن الصفوة الأولى من هذه الأمـة حيث يعتبر أسـامة بن زيـد واحداً من رجالات الطبقة الثـانية من المهـاجرين والأنصـار، حسب تقسيمات ابن سعد في طبقاته، لأنه اعتبر البدريين هم الطبقة الأولى، ومن لم يشهد بدراً ولهم اسـلام قديم، وهـاجر عـامتهم إلى أرض الحبشـة، وشهـدوا أحـداً ومـا

---

(١) أي نحفت لأنه قد روي عنه رضي الله عنه أنه كان ذا بطن.

(٢) الأعلام للزركلي ١: ٢٨٢.

(٣) أسد الغابة ١: ٨١.

بعدها من المشاهد، هم رجال الطبقة الثانية[1] هؤلاء الصفوة بطبقاتهم هم خير من بلّغ الرسالة بعد وفاة رسول الله ﷺ اهتماماً بالعمل، وتثبتاً في النقل، وصدقاً في العبارة، وترسماً لخطى رسول الله ﷺ في كل أمر، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات من كتاب الله، لم يتجاوزهن حتى يحفظهن ويعمل بهن، ولذا عقد العلماء باباً لأهمية العلم قبل القول والعمل[2].

وفاتــه:

في الحديث عن وفاة أسامة بن زيد، يحسن بنا أن نتعرض لما وصلنا عن صفاته، وعن أولاده وتاريخ الوفاة ومكانها كما هي عادة المؤرخين العرب، لارتباط هذه الأشياء بحياة المتوفى ومكانته فأما عن صفاته، فقد ذكر ابن الأثير أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما كان أسود افطس[3]، ويعضد هذه الرواية ما ذكره ابن سعد رواية عن هشام ابن عروة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ أخّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة بن زيد ينتظره، فجاء غلام أفطس أسود، فقال أهل اليمن: إنما جئنا من أجل هذا قال: فلذلك كفر أهل اليمن من أجل ذا. قال محمد بن سعد: قلت ليزيد بن هارون: ما يعني بقوله كفر أهل اليمن من أجل هذا؟ قال: ردتهم حين ارتدوا في زمن أبي بكر، إنما كانت لاستخفافهم بأمر النبي ﷺ[4]. ولضحكه.. رسول الله ﷺ عندما رأى وجه أسامة دلالة ومعنى تفسرها تلك العبارة التي قالها لعائشة رضي الله عنها، فقد ذكر ابن سعد عن أبي السّفر قال: بينما رسول الله ﷺ جالس هو وعائشة، وأسامة عندهم إذ نظر رسول الله ﷺ في وجه أسامة فضحك، ثم قال رسول الله ﷺ: لو أن أسامة جارية لحليتها وزنّيتها حتى انفقها[5]، وجاء في البداية والنهاية من صفاته: أنه كان أسود كالليل، أفطس حلواً حسناً كبيراً فصيحاً عالماً ربانياً[6]، وكان له بطن فكان يسميه بعضهم ذا البطن[7]، وقد روى عن

---

(١) طبقات ابن سعد ٤: ٥.
(٢) انظر فتح الباري جـ ١ ص ١٥٩.
(٣) أسد الغابة ١: ٨١
(٤) الطبقات ٤: ٦٣.
(٥) الطبقات ٤: ٦٢.
(٦) البداية والنهاية ٥: ٣١٢.
(٧) طبقات ابن سعد ٤: ٦٩.

ميمونة أنها رأت قريباً لها وقد أرخى إزارة بطنه، فلامته في ذلك ملامة شديدة فقال لها: إني قد رأيت أسامة بن زيد رخي ازاره، فقالت: كذبت ولكن كان ذا بطن فلعل إزاره كان يسترخى إلى أسفل بطنه(١).

وأسامة بن زيد الذي رفعه الله بالإسلام، فانقذه الله ومن قبله والده من الرق، واكرمهما بمحبة رسول الله ﷺ لهما واختصاصها ليكونا ممن يحوطهما بحنانه الأبوي ويخصها بدعاء يرفع الله به منزلتهما في الآخرة كما شوهد عياناً رفع منزلتهما في الدنيا، بالذكر الحسن والتوفيق في المهمات، وحسن الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله، وطواعيتهما الصادقة لرسول الله ﷺ.

كان اسامة رضي الله عنه هو خير من أدرك هذه المكانة وجميع صحابة رسول الله خيار، ويهتمون بكل عمل خيّر فكان في تصرفاته متمثلاً للشكر على ما تفضل الله به عليه، قدوة في التنفيذ، وحرصاً على العمل، واهتماماً بدلالة النص من مصدره الشرعي، وتواضعاً في النفس، وتلمساً لمداخل الخير، وأداء لما فرض الله عليه: شرفاً للصحبة الكريمة، ومحبة لله ولرسوله، واخلاصاً في العمل وفي إمرته على الجيش في الشام كان مظفراً موفقاً.

ذلك أن الصفات النبيلة والأخلاق الرفيعة قد وقرت في نفوسهم أخذاً من كتاب الله الذي كان خلق رسول الله ﷺ. كما قالت عائشة رضي الله عنها(٢)، لأن امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له ﷺ، وخلق تطبعت به نفسه، فترك طبعه الجبلّي فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء، والكرم والشجاعة، والصفح والحلم وكل خلق جميل.

فكانت هذه الصفات النبوية والأخلاق الكريمة، قدوة لصحابته، يتحلّون بها، ويهتمون باحتذائها وتلّمس مداخلها لينتهجوها قدوة صالحة، وأسامة بن زيد واحد من أبناء مدرسة النبوة، بل هو من ألصق الصحابة بها، منذ التحق

---

(١) طبقات ابن سعد ٤: ٧١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤: ٤٠٢.

والده زيد بن حارثة بخدمة رسول الله ﷺ قبل بعثه ﷺ، وإلى تسلسل مسيرة الحياة له ولابنه أسامة، فكانا الصق برسول الله ﷺ من الأبناء بآبائهم وكان رسول الله ﷺ أحنى عليهما من الأب على أبنائه المنحدرين من صلبه، ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي آفٍ قط، ولا قال لشيء فعلته لِمَ فعلته؟. ولا لشيء لم أفعله إلا فعلته؟. وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا لامست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله[1] ﷺ ومن هنا كان كل فرد من صحابة رسول الله ﷺ مثالاً في الصدق، ونبل الأخلاق، حيث مدحهم الله جل وعلا في مواطن من كتابه الكريم. ونهى رسول الله عن النيل منهم وأبان عن فضلهم ومكانتهم، وجاءت أحاديث في فضائلهم عامة، وأحاديث مخصصة في فضائل أفراد منهم، ومن فضائل الأفراد، وردت أحاديث في فضائل زيد بن حارثة، وابنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما[2]، كما ذكر ابن كثير في تاريخه اهتمام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بأسامة حتى أن عمر لا يلقاه إلا قال له: «السلام عليك أيها الأمير»[3] حيث ذكر ابن سعد أنه يقول: ما كنت لأحيي أحداً بالإمارة غير أسامة بن زيد لأن رسول الله قبض وهو أمير[4] وأما أولاده فقد ذكر ابن الأثير أنه كان يكنى أبا محمد، وقيل أبو زيد، وقيل أبو يزيد، وقيل أبو خارجه. وهو مولى رسول الله ﷺ من أبويه[5]، والكنية قد تكون من مسميات أولاده، ما عرفنا منهم وما لم نعرف، وقد تكون اختياراً لحق به، كما هي عادة العرب، ولكن الذي وصل إلينا علمه عن أولاده رضي الله عنه أن عددهم سبعة: خمسة أبناء وبنتان، والأبناء هم محمد وجبير وزيد وحسن وحسين والبنتان عائشة وهند.

وقد ذكر ابن سعد أن رسول الله ﷺ زوّج اسامة لما بلغ، وهو ابن أربع

(١) نفس المصدر.
(٢) راجع في فضائلهما: جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ٩: ٣٧ ـ ٤١.
(٣) البداية والنهاية ٥: ٣١٢.
(٤) أسد الغابة ١: ٧١.
(٥) الطبقات ٤: ٦٧.

عشرة سنة، ثم ذكر من زوجاته ثمان[١]، مما يدل على أنه قد رزق أولاداً اكثر من ذلك، وأن بعضهم قد يكون توفي صغيراً، فلم يأت له ذكر، أو أن الروّاة أغفلوا سيرته، حيث لوحظ أن سيرته رضي الله عنه، قد أسدل الستار على كثير منها، بعدما اختار لنفسه العزلة، ولم يرو إلاّ النزر اليسير منها بعد وفاة رسول الله ﷺ، واخبار الجيش الذي بعثه ﷺ بقيادة أسامة، وقد ورد عن محمد بن عمر: أن أولاد أسامة بن زيد من الرجال والنساء في كل دهر لم يبلغوا اكثر من عشرين إنساناً[٢].

وعن تاريخ وفاته ومكانها: جاءت بعض الاختلافات:

ذكر ابن سعد عن محمد بن عمر: أن النبي ﷺ قبض وأسامة ابن عشرين سنة[٣] وعلى رأيه هذا الذي لم يعضده أحد يكون مولده عام ١٠ قبل الهجرة، وسنه عندما أمّره رسول الله ﷺ عشرون عاماً، وهذا يخالف ما أجمع عليه بأن عمره ثمانية عشر عاماً.

والزركلي في الأعلام يرى أنه: لما توفي رسول الله ﷺ رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه، ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية، فسكن المزّة، وعاد بعد ذلك إلى المدينة فأقام إلى أن مات بالجرف في آخر خلافة معاوية في عام ٥٤ هـ[٤].

وعن وادي القرى الذي أبان الزركلي أن أسامة سكنه قال ياقوت في معجمه: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، وفتحها النبي ﷺ عام سبع عنوة، ثم صولحوا على الجزية، قال أحمد بن جابر: في سنة سبع لما فرغ النبي ﷺ من خيبر توجه إلى وادي القرى فدعا أهلها للإسلام، فامتنعوا عليه، وقاتلوه ففتحها عنوة، وغنم أموالها. وأصاب المسلمون منهم أثاثاً ومتاعاً فخمّس رسول الله ﷺ ذلك، وترك النخل والأرض في أيدي

(١) راجع الطبقات ٤: ٧٢.
(٢) نفس المصدر.
(٣) الطبقات ٤: ٧٢.
(٤) الأعلام ١: ٢٨٢.

اليهود، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، فقيل إن عمر رضي الله عنه، أجلى يهودها فيمن أجلى فقسمها بين من قاتل عليها، وقيل إنه لم يجلهم لأنها خارجة من الحجاز، وهي الآن مضافة إلى عمل المدينة وكان فتحها في جمادي الآخرة سنة سبع(١).

وهذا يدل على أن وادي القرى بعيد عن المدينة فيقدر اليوم بما يزيد عن ١٥٠ كم وهو العلا وما حولها وأن إقامة أسامة لم تكن مستمرة فيه، وذلك أن الروايات عند ابن عساكر، وابن سعد وابن الأثير وغيرهم، وعنهم أخذ الزركلي في الأعلام، قد اتفقت على أن وفاته كانت في الجرف قرب المدينة، وأنه نقل إلى المدينة حيث دفن رضي الله عنه.

وعن الجرف يقول ياقوت الحموي: الجرف بالضم والسكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم، وبئر جمل، قالوا: سمى الجرف لأن تبّعاً مرّ به فقال: هذا جرف الأرض. وكان يسمى العِرْض، وفيه قال كعب بن مالك:

إذا ما هبطنا العرض قال سراتنا علام إذا لم تمنع العِرْضَ نَزْرَعُ(٢)

وعن وفاته يذكر ابن الأثير في ترجمة حياته: أنه رضي الله عنه توفى آخر أيام معاوية سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل توفى سنة أربع وخمسين، قال أبو عمر: وهو عندي أصّح، وقيل: توفى بعد قتل عثمان بالجرف، وحمل إلى المدينة، روى عنه أبو عثمان النهدي، وعبدالله بن عبدالله بن عتبة وغيرهما(٣).

ومعلوم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين قد توفى عام ٣٥ هـ، ولعل الخلاف في تاريخ الوفاة جاء من اعتزاله رضي الله عنه وتفرغه للعبادة، حيث كانت الفتنة التي عصفت بالمسلمين ونتج عنها قتل عثمان، ثم ما وقر بأسماع الصحابة عن الفتن، والأمر بالبعد عنها، من أسباب

(١) معجم البلدان ٥: ٣٤٥.

(٢) معجم البلدان ٢: ١٢٨.

(٣) أسد الغابة ١: ٨١ لعل الصواب: عبيدالله بن عبدالله بن عتبة.

اعتزال أسامة وغيره من صحابة رسول الله ﷺ، وخيار التابعين، كما روى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، الذي روي عنه بأنه توفي بالربذة من قرى المدينة عام ٣٢ هـ وبعد أن استأذن عثمان بالذهاب إليها(١).

وهذا الاعتزال أبعدهم عن الأضواء، ومتابعة الكاتبين، لخوفهم على أنفسهم، وليكونوا قدوة لغيرهم، في حرصهم على تطبيق سنة رسول ربهم، والصدور عن توجيهاته.

ولعل الأرجح في تاريخ وفاته ومكانها هو ما ذكره ابن الأثير وهو عام ٥٤ هـ، وأنه بالجرف حيث نقل للمدينة ودفن بها رضي الله عنه، وأيَّده صاحب الاستيعاب، وبهذا أخذ المتأخرون كالزركلي في الأعلام وغيره، وبه يقول ابن كثير(٢).

مكانته عند رسول الله ﷺ :

ينفرد رسول الله ﷺ، بنماذج هي من خصائصه الكريمة، في حسن استقبال الناس، وفي محبته لأصحابة، وفي اهتمامه بهم، وفي دعائه لهم وتفقد أحوالهم، فهو ﷺ ينزل كل فرد منزلته يوجه ويرشد، ويعطف على الصغير، ويرحم الضعيف، ويزور المريض، ويتفقد المحتاج.. ويمازح أصحابه ويسرِّى عن نفوسهم، إذْ لم يكن فظاً ولا غليظاً، ولا سخّابا ولا مختالاً، ولا فاحشفا ولا متفحشاً، حيث جمع الخصال الحميدة، والسجايا العالية..

فكانت تلك الأخلاق تنعكس على أصحابه تعاملاً ومحبة، فهو للصغير أب، وللفقير عائل، وللمحتاج ذخر، وللضعيف ناصر..

وأسامة بن زيد الذي ولد في بيت النبوة، كان له في ذلك الدفق الأخلاقي، نصيب وافر، حيث فتح عينيه. ونما جسمه في أيام حياته طفولة وشباباً، ومحبة رسول الله ﷺ تشمله، ودعواته الكريمة تكتنفه، وهذا من وفاء

(١) أسد الغابة ٦ : ١٠٠، وطبقات ابن سعد ٤ : ٢٣٢.
(٢) البداية والنهاية ٥ : ٣١٢.

رسـول الله ﷺ واهتمامـه برعيتـه بخلاف مـا يدسـه أعداء الإسـلام كـما ذكـر المستشرقون في الموسوعة الإسلامية أن هذه المحبة ترجع إلى الرغبة في التقليـل من شأن بيت علي[١].

وقد روي في سيرة أسـامة مـواقف تنبيء عن مكانتـه من رسول الله ﷺ، ومحبته ﷺ له ولأبيه زيد بن حارثة، منها:

١ ـ ما رواه ابن سعد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: عثر أسامة عـلى عتبة الباب، أو اسكفة الباب فشجّ جبهته. فقال ﷺ: يا عائشة أميـطي عنه الدم، فتقذرته. قالت: فجعل رسـول الله ﷺ يمصّ شجته ويمجـه، ويقول: «لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى أنفقه[٢]».

كما ذكر الترمذي في مناقب أسامة رضي الله عنه حـديثاً عن عـائشة رضي عنها، قالت: أراد رسول الله ﷺ أن ينحي مخاط أسـامة، قـالت عائشـة رضي الله عنها: دعني حتى أنا الذي أفعل. فقال ﷺ: يا عائشة أحبيـه، فإني أحبه»[٣].

٢ ـ كان رسول الله ﷺ يحبـه، ويعطف عليـه، فقد روى ابن سعـد حديثـين متصلين بأسامة بن زيد بن حـارثة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ كـان يأخذ بـه وبالحسن بن عـلي ويقول: «اللهم إني أحبهـما فأحبهـما»[٤] رواه البخاري في صحيحه أيضاً.

وفي حديث ثالث رواه البخاري أيضاً قال أسامـة بن زيد: كـان نبي الله ﷺ يـأخذني فيقعـدني عـلى فخـذه، ويقعـد الحسن بن عـلي عـلى فخـذه الأخرى، ثم يضمنا ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[٥].

وقد روى الشعبيّ عن عائشـة رضي الله عنها أنها قـالت: سمعت رسول

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٢٣٠.
(٢) الطبقات ٤ : ٦٢. وأسد الغابة ١ : ٨٠.
(٣) مناقب أسامة رقم ٣٨١٨ وقال الترمذي حسن غريب.
(٤) الطبقات ٤ : ٦٢.
(٥) نفس المصدر.

الله ﷺ يقول: «من أحب الله ورسوله فليحب أسامة بن زيد»، ولهذا لما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس في الديوان، فرض لأسامة بن زيد في خمسة آلاف، وأعطى ابنه عبدالله بن عمر في أربعة آلاف، فقيل له في ذلك؟. فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك[(١)].

٣ - وقد ذكر ابن كثير في تاريخه أن أسامة كان أسود كالليل، وأن أباه زيداً كان أبيض شديد البياض ولهذا طعن بعض من لا يعلم في نسبه منه، ولما مرّ مجزّر المدلجي عليهما وهما نائمان في قطيفة، وقد بدت أقدامهما، أسامة بسواده، وأبوه زيد ببياضه. قال: سبحان الله إن بعض هذه الأقدام لمن بعض، فأعجب بذلك رسول الله ﷺ، ودخل على عائشة مسروراً، تبرق أسارير وجهه، فقال: ألم ترى أن مجزّزاً أبصر آنفاً إلى زيد بن حارثة، وأسامة بن زيد فقال: إن بعض هذه الأقدام لمن بعض»[(٢)].

وعلّق على ذلك ابن كثير بقوله: ولهذا أخذ الفقهاء من علماء الحديث، كالشافعي وأحمد من هذا الحديث، من حيث التقرير عليه، والاستبشار به، العمل بقول القافة في اختلاط الأنساب، واشتباهها، كما هو مقرر في موضعه[(٣)].

٤ - أن رسول الله ﷺ توسم فيه السداد والأهلية، مع حداثة سنه فعهد إليه بإمارة البعث الذي جّهزه ﷺ قبل وفاته إلى الشام، وأوصاه ودعاله، فكان جديراً بهذه المكانة، وكفأ لها. كما كان والده أهلاً لقيادة الجيش في غزوة مؤتة عام ٨ هـ الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى أرض الشام فقتل رضي الله عنه في تلك الموقعة هو وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحه رضي الله عنهم جميعاً فقد روى ابن سعد حديثاً بسنده إلى سالم عن أبيه،

---

(١) البداية والنهاية ٥ : ٣١٢. والترمذي برقم ٣٨١٣ رواية الترمذي ثلاثة آلاف وخمسمائة لأسامة وثلاثة آلاف لعبدالله بن عمر. وجاءت روايات أخرى بغير هاتين. ولعل الإختلاف بحسب ما يزيد في ايرادات الغنائم.

(٢) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٣. البداية والنهاية ٥ : ٣١٢.

(٣) البداية والنهاية ٥ : ٣١٢.

أنه كان يسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ، حين أمّر أسامة، فبلغه أن الناس عابوا أسامة وطعنوا في إمارته، فقام رسول الله ﷺ في الناس فقال: كما حدّث سالم: «**ألا إنكم تعيبون أسامة وتطعنون في إمارته، وقد فعلتم ذلك بأبيه من قبل، وإن كان لخليفاً للإماره، وإن كان لأحب الناس كلهم إليّ، وإن ابنه هذا من بعده لأحب الناس إليّ، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم**»(١). قال سالم: ما سمعت عبدالله يحدث هذا الحديث قطّ، إلا قال: ما حاشا فاطمة(٢). وقد وردت روايات عديدة في رغبة رسول الله ﷺ إنفاذ جيش أسامة، وفي تشديده صلوات الله وسلامه عليه على من اعترض على إمارته، وما ذلك إلا أن الاعتراض عليها مخالفة لأمر رسول الله ﷺ، وتشكيك في حسن اختياره، إذْ جميع أعماله عليه الصلاة والسلام تشريع للأمة، وقاعدة ينبغي الثبات عليها، لما وراءها من مصالح بعيدة الغور، ونتائج تريح المجتمعات، مهما مرت بها من أزمات ونوائب.

٥ ـ وقد كان رسول الله ﷺ يدعو له، وأكرم بها من منزلة تدل على مكانة هذا الصحابي، واهتمام رسول الله ﷺ به منذ ولادته. فقد روى الترمذي في مناقبة رضي الله عنه حديثاً قال فيه أسامة رضي الله عنه، كان رسول الله ﷺ قد عقد لي لواء في مرضه الذي مات فيه، وبرزت بالناس فلما ثقل رسول الله ﷺ أتيته يوماً، فجعل رسول الله ﷺ يضع يده عليّ ويرفعها، فعرفت أنه كان يدعو لي. فلما بويع أبو بكر كان أول ما صنع، أمر بإنفاذ تلك الراية التي عقدها لي رسول الله ﷺ إلا أنه كان قد سألني في عمر أن أتركه له، ففعلت» هذه الرواية ذكرها البخاري وفي رواية الترمذي قال: لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت، وهبط الناس إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أُصْمِتَ فلم يتكلم، فجعل رسول الله ﷺ يضع يده

(١) اخرج الحديث البخاري ومسلم والترمذي في المناقب.
(٢) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٦.

عليّ ويرفعها، فعرفت أنه يدعو لي»[١].

كما مرّ بنا أنه دعا له وللحسن بن علي بالرحمة، وأن يحبهما الله، وندب الناس إلى محبته أسامة وأوصاهم به خيراً، والسمع له والطاعة في القيادة التي أسند إمرتها إليه.

٦ - وقد عاتبه رسول الله ﷺ عتاب من يقوّمه في أمر هذا الدين الذي لا يقبل المخادعة ولا تنقض عراه بالقرابة، وإنما هو أمر الله الذي يجب أن تستقيم به النفوس، وتتربى عليه حواس الإنسان، وذلك في موضعين: المرة الأولى عندما قتل الرجل الذي قال لا إله إلا الله حتى أن تكرار عتب رسول الله ﷺ، جعل أسامة يتمنّى أنه لم يستقبل الإسلام مجدداً إلا يومئذ[٢].

والثانية عندما تشفّع في المرأة المخزومية التي سرقت، بعد أن أهم أمرها قريشاً، فقال له ﷺ: «لم تشفع في حدّ من حدود الله»؟[٣].

فكان في هذا العتاب درس لأسامة طوال حياته، ومنهج تشريعي للأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهكذا يجد المتتبع لكثير من المواقف التي حصلت في عهد النبوة، أن وراء حدوثها أسراراً وحكماً تفيد أمة الإسلام في تصريف الأمور في كل موقف مماثل، وتفيد علماء الإسلام في استنباط الأحكام الشرعيةفي كل أمر يعترض أبناء الإسلام، لتستقيم بذلك حياة الناس، وتنتظم أمورهم بما يتلاءم مع شرع الله. ولذا نرى أسامة لم يشهد مع علي رضي الله عنه شيئاً من مشاهده واعتذر إليه بما قال رسول الله حين قتل الرجل الذي قال لا إله إلا الله[٤].

(١) رواه الترمذي في مناقبه برقم ٣٨١٧ وقال حديث حسن غريب.

(٢) راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٦٩.

(٣) نفس المصدر ٤ : ٧٠.

(٤) البداية والنهاية ٥ : ٣١٢.

٧ ـ ولمكانة أسامة بن زيد رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ فقد كان يردفه على راحلته عندما يسير، فقد ذكر ابن كثير في تاريخه أن رسول الله ﷺ أردف أسامة خلفه مرتين:

الأولى: على حمار عليه قطيفة حين ذهب يعود سعد بن عبادة، قبل وقعة بدر.

والثانية: على ناقته حين دفع من عرفات إلى المزدلفة في حجة الوداع[١].

أما ابن سعد فذكر أن هذا الإرداف الذي يدل على تواضع رسول الله ﷺ، وعطفه على أسامة بن زيد قد كان ثلاث مرات، ولم يذكر من بينها عيادة سعد بن عبادة.. وهي:

الأولى: في حجة الوداع. فقد جاء بسند عن عطاء عن ابن عباس عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أفاض من عرفة، وهو رديف النبي ﷺ، وهو يكبح راحلته، حتى إن ذفراها[٢] ليكاد يصيب قادمة الرحل، وربما قال حماد بن سلمة: ليمسّ قادمة الرحل، ويقول: «يا أيها الناس عليكم بالسكينة والوقار، فإن البرّ ليس في إيضاع الإبل»[٣].

وجاءت هذه برواية أخرى عن قتادة قال: حدثني عروة أن عامراً الشعبي حدّثه أن أسامة قال: إنه كان ردف النبي ﷺ عشية عرفة، فلما أفاض، لم ترفع راحلته رجلها عادية حتى بلغ جمعاً[٤].

الثانية: بسندها إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءنا رسول الله ﷺ ورديفة أسامة ابن زيد فسقيناه من هذا النبيذ، فشرب ثم قال: أحسنتم فهكذا فاصنعوا[٥].

---

(١) البداية والنهاية ٥ : ٣١٢.
(٢) جاء في تاج العروس: الترمزي في القفا هو الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن ٢ : ٥ : ٢٢٤.
(٣) طبقات ابن سعد ٤/٦٤.
(٤) نفس المصدر وجمع هي المزدلفة.
(٥) نفس المصدر ٤ : ٦٤.

الثالثة: بسندها عن حماد بن سلمة، عن أيوب عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، ورديفه أسامة بن زيد، فأناخ في ظل الكعبة، قال ابن عمر: فسبقت الناس فدخل النبي ﷺ وبلال وأسامة الكعبة، فقلت لبلال وهو وراء الباب: أين صلى رسول الله ﷺ؟. قال: بحيالك بين الساريتين(١).

ومع هذا فيلاحظ المهتم أن كل مرة اقترنت بفائدة شرعية، مما يدل على ملازمة أسامة لرسول الله ﷺ، إذْ مع صغر سنه، فقد ثبت أنه روى عن رسول الله ﷺ ١٢٨ حديثاً ثبتت في الصحاح، حيث روى عنه الجماعة في كتبهم الستة، وهذا من خصائص هذا الصحابي الجليل، الذي يعتبر من شباب الصحابة، وممن ولد في الإسلام ولم يدن بغيره.

٨ - كما كان رسول الله ﷺ يخصه بما يهدى إليه، ويؤثره بها، وهذا من منبع المحبة لهذا الصحابي، وفي نقل الخبر عن كل حالة، يستمد المسلم أثراً شرعياً، يجب عليه ين يتأسى به في النفس، وفي العمل، ففي النفس لما تتركه الهدّية من ألفة بين النفوس، ومحبة تتقرّب بها الأفئدة، وفي العمل لما يجب على المسلم أن يسترشد به من حكم، وما يأخذه من فائدة، لأن توجيه رسول الله ﷺ ما هو إلا حكم شرعي، والتأسي بصحابته في قدوتهم عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله.

فقد روى ابن سعد بسنده عن أسامة بن زيد أنه قال: كساني رسول الله ﷺ قبطيّة كثيفة كانت مما أهدى دحية الكلبيّ، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله ﷺ: مالك لم تلبس القبطية؟ قال: قلت يا رسول الله كسوتها امرأتي. قال فقال ﷺ: مرها فلتجعل تحتها غلالة، إني أخاف أن تعض حجم عظامها(٢).

وفي مرة ثانية أهدى حكيم بن حزام إلى رسول الله ﷺ، حلة كانت لذي

---

(١) الطبقات ٤ : ٦٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٤.

يزن، وهو يومئذٍ مشرك، اشتراها بخمسين ديناراً، فقال رسول الله: إنا لا نقبل من مشرك، ولكن إذْ بعثت بها فنحن نأخذها بالثمن، بكم أخذتها؟ قال: بخمسين ديناراً. قال: فقبضها رسول الله ﷺ، ثم لبسها رسول الله ﷺ، وجلس على المنبر للجمعة، ثم نزل رسول الله ﷺ، فكسا الحلة أسامة بن زيد(١).

مواقفه الحربية :

لما كان أسامة على الأرجح عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، فإننا ندرك من منهج رسول الله ﷺ في إجازة شباب الصحابة للحرب حيث كان يمتحنهم ولا يأذن لمن لم يبلغ الحلم منهم ـ أن أسامة لم يجز قبل الرابعة عشرة من عمره على أي حال، وهي السن التي زوّجه فيه النبي الكريم لما بلغ.

وعلى هذا نستنتج أنه لم يشارك في الجهاد قبل السنة السادسة من الهجرة، ومع هذا لم يتضح لنا تحديد عن الغزوات التي شارك فيها مع رسول الله ﷺ، إلا أن نجابته قد برزت في وقت مبكر، وفراسة رسول الله ﷺ فيه، ودعواته له قد أحلاّه في مقتبل العمر مكاناً بارزاً، ومنزلة مرموقة فقد كان مع والده عام ٨ هـ في غزوة مؤتة في بلاد الشام. حيث روى ابن سعد عن ابن أبي حازم أن النبي ﷺ حين بلغه آن الراية صارت إلى خالد بن الوليد، بعد قتل القواد الثلاثة. قال صلى الله عليه وسلم: فهلاّ إلى رجل قتل أبوه، يعني أسامة بن زيد(٢).

ورأى بعضهم أنَّ أول ما جرّ به رسول الله ﷺ في قتال، أن بعثه على جيش ـ لم يحدد ابن سعد جهته ولا اسم المعركة ـ فلقي فقاتل فذكر منه بأس، مما يدل على شجاعة وحماسة، قال أسامة: فأتيت رسول الله ﷺ، وقد أتاه البشير بالفتح، فإذا هو متهلل وجهه، فأدناني منه. ثم قال: حدثني.

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٥.
(٢) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٢.

فجعلت أحدثه فقلت: فلما انهزم القوم أدركت رجلاً وأهويت إليه بالرمح فقال: لا إله إلا الله. فطعنته فقتلته. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ وقال: ويحك يا أسامة، فكيف لك بلا إله إلا الله، فمازال يكررها عليّ حتى لوددت أني انسلخت من كل عمل، عملته واستقبلت الإسلام يومئذٍ جديداً، فلا والله لا أقاتل أحداً قال: لا إله إلا الله بعدما سمعت رسول الله ﷺ(١)، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أنه أعيد قبل وقعة أحد لصغر سنه، وأنه قاتل بشجاعة في وقعة حنين، وأن رسول الله ﷺ أجرى له معاشاً بعد وقعة خيبر(٢).

ولما كان الجيش الذي عهد رسول الله ﷺ بإمارته إلى أسامة بن زيد لم يغادر المدينة حتى تولّى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة. فقال له أبو بكر: ما الذي عهد إليك رسول الله؟. قال عهد إليّ أن أغير على أبْنَى صباحاً ثم أحرّق(٣)، وقد جاء في دائرة المعارف أن هذه المدينة تعرف الآن بخان الزيت(٤) قال ابن سعد: فبعثه أبو بكر إلى آبل، واستأذن لعمر أن يتركه عنده، ثم أمره أبو بكر أن يجزر في القوم، قال هشام بن عروة: فأمره أبو بكر أن يجزر في القوم، بقطع الأيدي والأرجل والأوساط في القتال حتى يفزع القوم، قال: فمضى حتى أغار عليهم ثم أمرهم أن يفطموا الجراحة حتى يرهبوهم، قال ثم رجعوا وقد سلموا وقد غنموا. قال: فساروا فلما دنوا من الشام أصابتهم ضبابة شديدة فسترهم الله بها حتى أغاروا وأصابوا حاجتهم، قال: فقُدِمَ بنعي رسول الله ﷺ على هرقل، وإغارة أسامة في ناحية أرضه خبراً واحداً، فقالت الروم: ما بال هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا، قال عروة: فما رئي جيش كان أسلم من الجيش(٥).

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٩.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٢٢٩.
(٣) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٦.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٢٢٩.
(٥) طبقات ابن سعد ٤ : ٦٨.

ذلك أن عزم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقوته في الحق، وثباته على أمر رسول الله ﷺ. اعطى لجيش أسامة أثراً ـ بعد توفيق الله جل وعلا ـ حيث كانت من الآراء التي أشير بها على أبي بكر بعدما وقع ردة من العرب عدم تنفيذ جيش أسامة، لاحتياجه إليه فيما هو أهم، فامتنع أبو بكر رضي الله عنه أشد الاباء وأصر على أن ينفّذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحلّ عقدة عقدها رسول الله، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين إلى آخر ما قال. فكان خروج جيش أسامة في ذلك الوقت من أكبر المصالح، والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحيّ من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة. فقاموا أربعين يوماً، ويقال سبعين يوماً ثم أتوا سالمين غانمين، ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال أهل الردة، وما نعي الزكاة(١).

ذلك أنهم بعد ما لقوا الروم وهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين، كان ذلك من أسباب ثبات بعض القبائل على الإسلام(٢).

وفي اهتمام رسول الله ﷺ ببعث أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الشام، وشدة اهتمام أبي بكر الصديق بذلك في أول خلافته استفاض ابن عساكر في تاريخه في ذلك، فقد أخرج من طريق الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ أمره أن يغير على أبنى، ـ بضم الهمزة والقصر اسم موضع في فلسطين بين عسقلان والرملة يقال لها يبنى بالياء ـ صباحاً وأن يحرق. ثم قال رسول الله لأسامة: امض على اسم الله، فخرج بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريده بن الحصيب الأسلمي، فخرج به إلى بيت أسامة، وأمر رسول الله ﷺ أسامة فعسكر بالجرف، وضرب عسكره في موضع سقاية سليمان اليوم، وجعل الناس يأخذون بالخروج، فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره، ومن لم يقض حاجته فهو على فراغ، ولم يبق أحد من المهاجرين

(١) البداية والنهاية ٦ : ٣٠٤.
(٢) نفس المصدر ٦ : ٣٠٥.

الأولين إلا انتدب في تلك الغزوة: عمر بن الخطاب وأبو عبيدة وسعد ابن أبي وقّاص، وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في رجال من المهاجرين، والأنصار عدة منهم: قتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش، رضي الله عنهم، فقال رجال من المهاجرين، وكان أشدهم في ذلك قولاً - عياش بن أبي ربيعة رضية الله عنه -: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين، فكثرت القالة في ذلك، فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ذلك القول، فرده على من تكلم به، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقول من قال.. فغضب رسول الله غضباً شديداً، وقد عصب على رأسه بعصابة وعليه قطيفة، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس. فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة بن زيد؟. فوالله لئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله، إن كان للإمارة لخليق، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وإن كان لأحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ، وإنهما لمخيلّان لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم(١).

ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر حلول من ربيع الأول، وجاء المسلمون الذين سيخرجون مع أسامة رضي الله عنه، يودعون رسول الله ﷺ، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورسول الله ﷺ يقول: أنفذوا بعث أسامة، ودخلت أم أيمن رضي الله عنها فقالت: أي رسول الله، لو تركت أسامة يقيم في معسكره حتى تماثل فإن أسامة إن خرج على حاله هذه، لم ينتفع بنفسه، فقال رسول الله ﷺ: أنفذوا بعث أسامة.

فمضى الناس إلى المعسكر فباتوا ليلة الأحد، ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور، وهو اليوم الذي لدّوه فيه - واللدود ما يسقاه

---

(١) رواية مسلم ان رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر: «إن تطعنوا في إمارته - يريد أسامة - فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إن كان لخليقاً لها، وأيم الله إن كان لأحب الناس إليّ، وأيم الله إن هذا الخليق - يريد أسامة بن زيد - وأيم الله إن كان لأحبهم إليّ من بعده، فأوصيكم به، فإنه من صالحيكم» [فضائل زيد وأسامة رضي الله عنهما].

المريض من الأدوية ـ فدخل على رسول الله ﷺ وعيناه تهملان، وعنده العباس، والنساء حوله، فطأطأ عليه أسامة فقبّله ـ ورسول الله ﷺ لا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ويصبهما على أسامة، قال أسامة رضي الله عنه: فأعرف أنه كان يدعولى. قال أسامة: فرجعت إلى معسكري، فلما أصبح يوم الأثنين غدا من معسكره، وأصبح رسول الله ﷺ مفيقاً، فجاءه أسامة فقال: أغد على بركة الله. فودّعه أسامة ورسول الله ﷺ مفيق. وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته، ودخل أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أصبحت مفيقاً بحمد الله واليوم يوم ابنة خارجة، فأذن لي. فأذن له فذهب إلى السنح، وركب أسامة إلى معسكره، وصاح في أصحابه باللحوق بالعسكر، فانتهى إلى معسكره، ونزل وأمر الناس بالرحيل، وقد متع النهار ـ أي طال وامتدّ وتعالى ـ فبينا أسامة يريد أن يركب من الجرف أتاه رسول ام أيمن رضي الله عنها، تخبره أن رسول الله ﷺ يموت.

فأقبل أسامة إلى المدينة ومعه عمر وأبو عبيدة ـ رضي الله عنهم ـ فانتهوا إلى رسول الله ﷺ، وهو يموت، فتوفي عليه الصلاة والسلام حين زاغت الشمس يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بن الحصيب رضي الله عنه بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزه عنده، فلما بويع لأبي بكر أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة، ولا يحله أبداً حتى يغزو بهم أسامة، فقال بريدة: فخرجت باللواء حتى انتهيت إلى بيت أسامة، ثم خرجت به إلى الشام معقوداً مع أسامة، ثم رجعت به إلى بيت أسامة، فمازال معقوداً في بيته حتى توفي.

فلما بلغ العرب وفاة رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد منها عن الإسلام، قال أبو بكر لأسامة: انفذ في وجهك الذي وجهك فيه رسول لله ﷺ، وأخذ الناس بالخروج، وعسكروا في موضعهم الأول، وخرج بريدة باللواء حتى انتهى إلى معسكرهم الأول، فشق ذلك على كبار المهاجرين الأولين، ودخل

على أبي بكر وعمر وعثمان وأبي عبيده وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد - رضي الله عنهم - فقالوا: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد انتفضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدة لأهل الردة، ترمى بهم في نحورهم، وأخرى لا تأمن على أهل المدينة، أن يغار عليها، وفيها الذراري والنساء. ولو تأخرت لغزو الروم، حتى يضرب الإسلام بجرانه، ويعود أهل الردة إلى ما خرجوا منه، أو يفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة حينئذ، فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا. فلما استوعب أبو بكر كلامهم، قال: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً؟. قالوا: لا. قد سمعت مقالتنا. فقال: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة، لأنفذت هذا البعث، ولابد أن يؤوب منه، كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: أنفذوا جيش أسامة، ولكن خصلة أكلم فيها أسامة، أكلمه في عمر يقيم عندنا، فإنه لا غنى بنا عنه، والله ما أدرى يفعل أسامة أم لا؟ والله إن أبى لأكرهه.

فعرف القوم أن أبا بكر عزم على انفاذ بعث أسامة، ومشى أبو بكر إلى أسامة في بيته، وكلمه في أن يترك عمر ففعل وجعل يقول له: أذنت ونفسك طيبة؟. فقال أسامة: نعم. قال: فخرج وأمر مناديه ينادي عزمة مني أن لا يتخلف عن أسامة من بعثه من كان انتدب معه في حياة رسول الله ﷺ، فإني لن أوتى بأحد أبطأ عن الخروج عنه إلا ألحقته به ماشياً، وأرسل إلى النفر من المهاجرين الذين كانوا تكلموا في إمارة أسامة، فغلظ عليهم وأخذهم بالخروج، فلم يتخلف إنسان واحد، وخرج أبو بكر يشيّع أسامة والمسلمين، فلما ركب من الجرف في أصحابه، وهم ثلاثة آلاف رجل، وفيهم الف فرس، فسار أبو بكر إلى جنب أسامة ساعة، ثم قال: استودع الله دنيك، وأمانتك وخواتيم عملك، إن رسول الله ﷺ أوصاك، فأنفذ لأمر رسول الله، فإني لست آمرك ولا أنهاك عنه، إنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله.

فخرج سريعاً، فوطىء بلاداً هادئة، لم يرجعوا عن الإسلام مثل جهينة. وغيرها من قضاعة فلما نزل بوادي القرى، قدم عيناً له من بنى عذرة يدعى

حرثياً، فخرج على صدر راحلته أمامه فغزى حتى أتى أُبْنى، فنظر إلى ما هناك، وارتاد الطريق، ثم رجع سريعاً حتى لقي أسامة على مسيرة ليلتين من أُبْنى، فأخبره أن الناس غارّون ولا جموع لهم، وأمره أن يسرع السير، قبل أن تجتمع الجموع، وأن يشنها غارة(١).

وفي هذه الغزوة التي سرد ابن عساكر بعض وقائعها يقول ابن كثير في تاريخه: فأغار أسامة على تلك البلاد وغنم وسبى، وكرّ راجعاً سالماً مؤيداً(٢).

وذكر الكاندهلوي أن جيش أسامة لما خرج لوجهه الذي أمره به رسول الله ﷺ أبلى بلاءً حسناً ولقي من الروم مقاومة شديدة، ولكن الله سلّمه، وغنم هو وجيشه وردّهم الله إلى المدينة صالحين(٣).

وكانت هذه المعركة التي قادها أسامة بإمرة رسول الله ﷺ، ذات دروس عديدة أفادت الإسلام في عاجل أمره نصراً وتثبيتاً، وقوة وتمكيناً في النفوس، وفي آجل أمره بما يستفيده القادة العسكريون والإداريون من مصالح تبرز أمامهم في كل موقف يعترضهم، وتتبدىّ نتائجة في كل معضلة يراد منها تفكيك القوة، ودسّ بذور التخاذل في الصفوف، وما اكثر الفوائد والمصالح التي يجب أن يستنار بها، والمماثلة لهذه البعثة، وما اكتنفها من أمور، حتى تقوى العزائم، وينضج الفكر المرشد للأمور المهمة، لما في الرأي الصائب من مصلحة نحو الإسلام، ومردود في تفهيم الناس لما تنطوي عليه تعاليمه، ودور الرجال المخلصين في توجيه الأمور بنظرتهم البعيدة الصادقة المخلصة. ومن صدق مع الله الهمه الله الحكمة، وبصّره بمواطن الزلل، فسار نحو الأصلح، وتجافى عن الأمور الضارة، وما التوفيق إلا من عند الله.

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١ : ١٢٠.

(٢) البداية والنهاية ٥ : ٣١٢.

(٣) حياة الصحابة ١ : ٤١٣.